

المحاضرة السادسة: النظريات الاجتماعية المعاصرة

شهد العالم منذ القرن التاسع عشر تحولات جطرية مست مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، مثل التصنيع، وتوسع الرأسمالية، ونشوء الدولة الحديثة، والاستعمار، ثم الحروب العالمية. وقد دفعت هذه التحولات المفكرين إلى محاولة فهم طبيعة المجتمع الحديث وآليات تغييره.

ومن هنا ظهرت النظريات الاجتماعية التي تسعى إلى تفسير المجتمعات والعلاقات الاجتماعية وأسباب التغيير الاجتماعي. وتمثل هذه النظريات أدوات تحليلية مهمة للمؤرخ، لأنها تساعد على فهم الظواهر التاريخية الكبرى مثل الثورة الصناعية، والتحولت الاقتصادية، والحركات الاجتماعية، وعمليات الاستعمار والتحرر الوطني وغيرها من القضايا المباشرة.

أولاً: العلاقة بين التاريخ وعلم الاجتماع

تقوم العلاقة بين التاريخ وعلم الاجتماع على أساس تكاملي، إذ يشترك العلمان في موضوع واحد هو المجتمع، لكنهما يختلفان في زاوية المعالجة. فالتاريخ يهتم بتتبع الظواهر في بعدها الزمني، محاولاً فهم تطورها عبر الزمن، بينما يركز علم الاجتماع على تحليل البنى والعلاقات التي تنظم المجتمع في لحظة معينة. وقد أدى هذا التفاعل بين الحقلين إلى ظهور اتجاهات جديدة في البحث التاريخي، مثل التاريخ الاجتماعي والتاريخ الاقتصادي وتاريخ الذهنيات، وهي مجالات تسعى إلى تجاوز السرد التقليدي نحو تحليل أعمق للواقع الاجتماعي. وفي هذا الإطار، لا تُستخدم النظريات الاجتماعية كقوالب جاهزة تُفرض على الوقائع، بل كأدوات تفسيرية تساعد المؤرخ على الكشف عن البنى الخفية والعلاقات المعقدة التي لا تظهر في الوثائق بشكل مباشر.

ثانياً: نشأة النظريات الاجتماعية

ظهرت النظريات الاجتماعية الحديثة في أوروبا منذ القرن الثامن عشر، في فترة عرفت تغييرات كبيرة مست مختلف جوانب الحياة. فلم يعد المجتمع يُفهم فقط من خلال العادات والتقاليد أو التفسيرات الدينية، بل أصبح موضوعاً للتفكير العقلي والدراسة العلمية. وقد ساهمت تحولات كبرى مثل الثورة الصناعية، وظهور النظام الرأسمالي، واندلاع الثورات السياسية، في تغيير شكل المجتمع، حيث تراجعت البنى التقليدية وظهرت أنماط جديدة من التنظيم الاجتماعي. وأمام هذه التغييرات، حاول المفكرون فهم ما يحدث وتفسيره.

وفي هذا السياق، لعب فلاسفة التنوير دوراً أساسياً، إذ أكدوا على دور العقل في تنظيم المجتمع. ومن أبرزهم مونتسكيو وجان جاك روسو، حيث قدما أفكاراً حول القوانين الاجتماعية والعقد الاجتماعي، معتبرين أن

المجتمع يمكن بناؤه على أسس عقلانية. غير أن هذه الأفكار تعرضت للانتقاد، خاصة بعد فشل بعض التجارب الثورية، مما أدى إلى ظهور اتجاهات محافظة دعت إلى التمسك بالتقاليد والحفاظ على النظام الاجتماعي.

ومع بداية القرن التاسع عشر، تطور التفكير في المجتمع وأخذ طابعًا علميًا، حيث ظهر علم الاجتماع كعلم مستقل على يد أوغست كونت، الذي دعا إلى دراسة المجتمع بطريقة تعتمد على الملاحظة والتجربة. وقد كان لهذا التحول أثر كبير، إذ أصبح الهدف هو البحث عن القوانين التي تفسر الظواهر الاجتماعية. وفي مرحلة لاحقة، واصل إميل دوركايم هذا التوجه، حيث اعتبر أن الظواهر الاجتماعية يمكن دراستها كأشياء قائمة بذاتها، تخضع لقوانين خاصة. أما ماكس فيبر، فقد ركز على جانب آخر، وهو فهم سلوك الأفراد من خلال المعاني التي يعطونها لأفعالهم، مما فتح المجال لدراسة البعد الإنساني في المجتمع. وبذلك، يمكن القول إن النظريات الاجتماعية نشأت نتيجة التغيرات التاريخية الكبرى، وتطورت مع تطور الفكر الإنساني، حيث انتقلت من أفكار فلسفية عامة إلى دراسات علمية منظمة، وأصبحت أداة مهمة لفهم وتحليل الظواهر التاريخية والاجتماعية.

ثالثًا: تطور النظريات الاجتماعية

شهدت النظريات الاجتماعية تطورًا ملحوظًا منذ أواخر القرن التاسع عشر وطيلة القرن العشرين، حيث انتقلت من مرحلة التأسيس الكلاسيكي إلى مرحلة التنوع والتعقيد النظري. ففي البداية، هيمنت النظريات الكبرى التي سعت إلى تقديم تفسيرات شاملة للمجتمع، مثل أعمال إميل دوركايم التي ركزت على تماسك المجتمع ووظائف مؤسساته، وأفكار كارل ماركس التي أبرزت دور الصراع الطبقي في تفسير التغيير الاجتماعي، إضافة إلى تحليلات ماكس فيبر التي اهتمت بالفعل الاجتماعي والعقلنة. وقد شكلت هذه الاتجاهات ما يُعرف بالنظريات الكلاسيكية التي أرست الأسس الأولى للتحليل السوسيولوجي.

ومع تطور المجتمعات وتعقدها، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، برزت نظريات جديدة حاولت تفسير الواقع الاجتماعي من زوايا متعددة. فقد ظهرت النظرية الوظيفية البنائية في الولايات المتحدة، مؤكدة على استقرار المجتمع وتكامل أجزائه، لكنها تعرضت لانتقادات بسبب عجزها عن تفسير الصراع والتفاوت. وفي المقابل، عادت النظريات الصراعية، خاصة الماركسية الجديدة، لتبرز من جديد، إلى جانب ظهور النظريات النسوية التي ركزت على قضايا المرأة، ونظريات تهتم بالعرق والثقافة.

وفي مرحلة لاحقة، اتجهت النظريات الاجتماعية إلى الاهتمام بالحياة اليومية والتفاعلات الفردية، من خلال تيارات مثل التفاعلية الرمزية، مما أدى إلى بروز ما يُعرف بالنظريات الصغرى، في مقابل النظريات الكبرى. ومع اتساع الفجوة بين هذين الاتجاهين، ظهرت محاولات للتوفيق بينهما، كما نجد عند بيير بورديو وأنطوني جيدنز، اللذين سعيا إلى الجمع بين البنية الاجتماعية وأفعال الأفراد.

ومع نهاية القرن العشرين، دخلت النظرية الاجتماعية مرحلة جديدة اتسمت بالنقد وإعادة التقييم، خاصة مع ظهور اتجاهات ما بعد الحداثة التي شككت في فكرة الحقيقة المطلقة، وركزت على تحليل الخطاب والسلطة، كما في أعمال ميشيل فوكو. كما ساهمت العولمة في جعل النظرية الاجتماعية أكثر انفتاحا وتعددا، بحيث لم تعد مرتبطة بسياق وطني محدد، بل أصبحت تتناول قضايا كونية مشتركة.

وعليه، فإن تطور النظريات الاجتماعية يعكس انتقالها من البحث عن تفسيرات شاملة وثابتة إلى مقاربات متعددة ومتكاملة، تسعى إلى فهم تعقيد الواقع الاجتماعي، وهو ما يجعلها أداة أساسية في تحليل الظواهر التاريخية الحديثة.

1_ المرحلة الكلاسيكية (أواخر القرن 19 - بدايات القرن 20)

شهدت النظريات الاجتماعية تطورا نوعيا منذ أواخر القرن التاسع عشر، حيث انتقلت من الطابع الفلسفي إلى بناء نظري يفسر الظواهر الاجتماعية والتاريخية في إطار علمي. وقد تميزت هذه المرحلة، بهيمنة النظريات الكبرى، التي حاولت تقديم تفسيرات شاملة لبنية المجتمع وتحولاته.

ويعتبر إميل دوركايم احد ابرز المنظرين في هذه المرحلة حيث ركز على فكرة التماسك الاجتماعي، واعتبر أن المجتمع يتكون من مؤسسات مترابطة تؤدي وظائف محددة تضمن استقراره واستمراره. وفي المقابل، قدم كارل ماركس تفسيراً مغايراً، إذ اعتبر أن الصراع الطبقي هو المحرك الأساسي للتاريخ، وأن التغيرات الكبرى، مثل الثورات، لا يمكن فهمها إلا من خلال التناقضات الاقتصادية والاجتماعية داخل المجتمع. أما ماكس فيبر، فقد أضاف بعداً جديداً للتحليل من خلال تركيزه على الفعل الاجتماعي، مبرزاً دور القيم والثقافة في توجيه السلوك الإنساني، خاصة بعد ظهور مفاهيم الحداثة والعقلنة.

2_ مرحلة بعد الحرب العالمية الثانية

بعد الحرب العالمية الثانية، دخلت المجتمعات وخاصة الأوروبية مرحلة جديدة اتسمت بالتعقيد البنوي والتسارع التاريخي، وهو ما انعكس مباشرة على تطور النظريات الاجتماعية. ففي هذه المرحلة، برزت أدوات جديدة لها القدرة على تفسير وتحليل الواقع الاجتماعي المتغير.

أ_ النظرية الوظيفية

فقد هيمنت في البداية النظرية الوظيفية، خاصة في الولايات المتحدة، حيث تعد من أهم النظريات الاجتماعية في القرن العشرين. وقد ارتبطت أساسا بأعمال عالم الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسونز Talcott Parsons (1902-1979)، عالم اجتماع أمريكي وأستاذ في جامعة هارفارد، ويعتبر أحد أبرز مؤسسي النظرية الوظيفية البنوية. وقد سعى إلى صياغة نظرية عامة للفعل الاجتماعي والأنظمة تقسّر كيف تحافظ المجتمعات على النظام والتكامل في العصر الحديث.

ثم طورها لاحقا عالم اجتماع أمريكي روبرت ك. ميرتون Robert K Merton (1910-2003) من الراد المعاصرين في علم اجتماع العلوم، ومروجا للوظيفية البنوية. وقد أثرت مفاهيمه بشكل عميق على الفكر الاجتماعي والثقافة الشعبية.

وتتعلق النظرية الوظيفية من فكرة أن المجتمع يشبه نظاما متكاملًا يتكون من مجموعة من المؤسسات الاجتماعية مثل الأسرة والدولة والاقتصاد والتعليم والدين. وتؤدي كل مؤسسة وظيفة معينة تساهم في تحقيق الاستقرار والتوازن داخل المجتمع.

وبذلك فإن المجتمع لا يقوم على الصراع فقط، بل يعتمد أيضا على التعاون والتكامل بين مختلف مؤسساته. ولا يفوتنا ان تشير هنا الى ما يلي:

ان انتشار هذه النظرية ارتبط بصعود الولايات المتحدة كقوة عالمية بعد الحرب العالمية الثانية، حيث سعت العلوم الاجتماعية إلى تفسير نجاح النموذج الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع الأمريكي. في نفس هذه المرحلة عادت نظرية الصراع إلى الواجهة، حيث أعادت التأكيد على أن الصراع، ليس التوازن، وانه المحرك الأساسي للتاريخ.

ب_ نظرية الصراع

ارتبطت نظرية الصراع بأفكار الفيلسوف والاقتصادي الألماني كارل ماركس Karl Marx، الذي قدم تفسيرًا تاريخيًا للمجتمع قائمًا على الصراع بين الطبقات الاجتماعية. لكنها تطورت في القرن العشرين على يد مفكرين مثل عالم اجتماع أمريكي رالف داريندورف Ralf Dahrendorf (1929-2009) يعد من اقطاب علماء الاجتماع و المنظرين السياسيين في ألمانيا، وشخصية بارزة في الفكر الليبرالي في القرن العشرين. وبصفته منظرًا للصراع الاجتماعي، سعى إلى التوفيق بين الحرية الفردية والعدالة الاجتماعية والديمقراطية في المجتمعات الصناعية الحديثة.

ترى نظرية الصراع أن المجتمع يتكون من جماعات أو طبقات اجتماعية مختلفة المصالح، وأن الصراع بينها يمثل المحرك الأساسي للتغير التاريخي. ففي المجتمعات الرأسمالية مثلاً يوجد صراع بين الطبقة البرجوازية التي تملك وسائل الإنتاج والطبقة العاملة التي تبغ قوة عملها، ويؤدي هذا الصراع إلى تغيرات اجتماعية وسياسية قد تصل إلى الثورات. ولا يمكن أن نتجاهل أن هذه الأفكار ظهرت في القرن التاسع عشر ضمن التحولات الكبرى التي عرفت أوروبا بعد الثورة الصناعية، حيث أدى التصنيع إلى ظهور طبقات اجتماعية جديدة وإلى تقادم الفوارق الاقتصادية. وشهدت أوروبا خلالها نمو الحركات العمالية والنقابات، إضافة إلى انتشار الأفكار الاشتراكية.

كما شهدت هذه المرحلة ظهور تيارات نقدية جديدة، من بينها النظريات النسوية التي ركزت على تحليل وضع المرأة داخل البنى الاجتماعية، وكشفت عن أشكال التمييز وعدم المساواة القائمة على النوع الاجتماعي. وإلى جانب ذلك، برزت نظريات تهتم بدراسة العرق والثقافة، ساعية إلى فهم التفاوتات الاجتماعية من خلال عوامل تتجاوز البعد الطبقي التقليدي.

وبذلك، يمكن القول إن مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية تميزت بانتقال النظرية الاجتماعية من التفسير الأحادي إلى التعدد النظري، وهو ما يوفر للمؤرخ أدوات تحليل أكثر تنوعاً لفهم الظواهر التاريخية.

جـ. مدرسة فرانكفورت والنظرية النقدية

ظهرت مدرسة فرانكفورت في ألمانيا خلال ثلاثينيات القرن العشرين، وارتبطت بمعهد البحوث الاجتماعية في مدينة فرانكفورت. ومن أبرز مفكريها:

ـ **ماكس هوركهايمر** (1895-1973) فيلسوف وعالم اجتماع ألماني وأحد المؤسسين الرئيسيين لمدرسة فرانكفورت صاغ منهجاً متعدد التخصصات يربط بين الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس والماركسية غير التقليدية. وقد أثرت تحليلاته للعقلانية الحديثة والفاشية والثقافة الجماهيرية تأثيراً عميقاً في الفكر الاجتماعي في القرن العشرين.

ـ **تيودور أدورنو** (1903-1969) فيلسوفاً وعالم اجتماع وموسيقياً ألمانياً، وشخصية بارزة في مدرسة فرانكفورت. وقد مارس من خلال أعماله تأثيراً حاسماً على الفلسفة الاجتماعية وعلم الجمال والنقد الثقافي

_ هيربرت ماركوز (1898-1979) فيلسوف وعالم اجتماع ألماني أمريكي، وشخصية بارزة في مدرسة فرانكفورت، وأحد أبرز ممثلي الماركسية الغربية. وقد أثرت أعماله حول العقلانية التكنولوجية، والثقافة الجماهيرية، والتحرر بشكل كبير على الحركات الطلابية واليسار النقدي في ستينيات القرن العشرين. تسعى النظرية النقدية إلى تحليل المجتمع الحديث ونقد أشكال الهيمنة والسيطرة فيه، خاصة في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة.

وقد ركز مفكرو هذه المدرسة على دراسة دور الثقافة والإعلام في تشكيل الوعي الاجتماعي، وعلى تأثير ما يسمى بالصناعة الثقافية في توجيه أفكار الناس.

ظهرت هذه المدرسة في سياق تاريخي اتسم بعدة تحولات كبرى، مثل:

- صعود الأنظمة الفاشية في أوروبا
- الأزمة الاقتصادية العالمية في ثلاثينيات القرن العشرين
- الحرب العالمية الثانية.
- الحرب الباردة

ملاحظة معرفية

ينصح بما يلي:

قراءة في كتاب: مدرسة فرانكفورت: تاريخها وتطورها النظري وأهميتها السياسية

المؤلف: رولف فيغرسهاوس

المترجم: عصام سليمان وغانم هنا

على الرابط:

https://tabayyun.dohainstitute.org/ar/issue045/Documents/Tabayun45-2023_kamel.pdf

3_ النظرية الاجتماعية منذ أواخر القرن العشرين

تمثلت في نقد الحقيقة، خطاب السلطة، وانفتاحها على العولمة

مع نهاية القرن العشرين، دخلت النظرية الاجتماعية مرحلة جديدة اتسمت بإعادة النظر النقدي في

أسسها المعرفية والمنهجية، حيث لم تعد تكتفي بتفسير المجتمع، بل أصبحت تعيد مساءلة أدوات هذا التفسير

نفسه. وقد ارتبط هذا التحول بظهور اتجاهات ما بعد الحداثة، التي وجهت نقدا جذريا لفكرة الحقيقة المطلقة

والنماذج التفسيرية الشاملة، معتبرة أن المعرفة الاجتماعية ليست محايدة، بل مرتبطة بالسياقات التاريخية والثقافية والسلطوية التي تنتجها.

وفي هذا الإطار، برز اهتمام متزايد بتحليل الخطاب وعلاقته بالسلطة، كما يتجلى في أعمال ميشيل فوكو، في كتابه "أركيولوجيا المعرفة". الذي ركز على كيفية تشكل المعرفة داخل أنظمة السلطة، وكيف تُستخدم الخطابات في إنتاج أشكال من الهيمنة الاجتماعية والسياسية. وقد ساهم هذا التوجه في إعادة توجيه النظرية الاجتماعية نحو دراسة آليات التحكم والمعرفة بدل الاقتصار على تفسير البنى الاجتماعية التقليدية.

وفي السياق نفسه، لعبت ظاهرة العولمة دورا مهما في إعادة تشكيل النظرية الاجتماعية، حيث أدت إلى تجاوز الإطار الوطني الضيق، وجعلت القضايا الاجتماعية أكثر ترابطا على المستوى العالمي. فقد أصبحت الظواهر مثل الهجرة، والتفاوت الاقتصادي العالمي، والتبادل الثقافي، موضوعات مركزية في تحليل السياسات الاجتماعية المعاصر، مما جعل النظرية الاجتماعية أكثر انفتاحا وتعددا في مقارباتها، وأكثر ارتباطا بقضايا العالم كله

وبذلك، يمكن القول إن النظرية الاجتماعية في هذه المرحلة لم تعد مجرد أداة لتفسير المجتمع، بل أصبحت أيضا مجالا نقديا يعيد مساءلة أسس المعرفة نفسها، في سياق عالمي متغير ومعقد.